العدد 13A مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية ايار 2026
No. 13A Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences May 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

الإحالة الضمائرية في همزية ابن الحداد الأندلسي (ت. 480هـ)

م. صلاح محسن حازم
قسم اللغة العربية- كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة الحمدانية _ العراق
salah@uohamdaniya.edu.iq

المستخلص

تسلط الدراسة الأضواء ظاهرة الإحالة الضمائرية في همزية ابن الحداد الأندلسي من منظور نحوي دلالي، بوصفها آلية فاعلة في الانتاج الدلالي وإنجاز التماسك في بنية تماسك النص الشعري ، وتنطلق مجسات البحث ارتكازا على الإشكالية الدائرة حول الدور الوظائفي للإحالة الضميرية في تنظيم العلاقات الدلالية وضمان استمرارية المرجع ، بما يتجاوز حدود الجملة إلى مساحات النص الكلي. وقد كانت الضرورة لازمة لتوظيف آليات المنهج النحوي الدلالي التطبيقي ، المتمحور حول تحليل البنى الإعرابية للضمائر وربطها تلازميا بالأقنعة الدلالية والسياقية. وقد أُختيرت الهمزية عينةً للدراسة ، بالنظر إلى الكثافة الضمائرية المبثوثة في النص وتعدد مرجعياتها ومبانيها الخطابية ، مما يجعلها حقلا ثريا للتحليل النصي.

وقد انتهت الدراسة إلى جملة من النتائج اللافتة:

- ❖ تأدية الضمير وظائف أنساقية تفاعلية أنجزت الاتساق والانسجام الدلالي.
- ❖ إنجازية الإحالة القبلية في ضمان استمرارية المرجع الدّلالي ، لا سيما المرجع المركزي للممدوح.
- ❖ تعزّز الإحالة المقامية ارتباط الخطاب بسياقه التاريخي والسياسي وتكثّف فاعليته الإقناعيّة.
- ❖ المركزية الوظيفية للالتفات وتحول الضمائر في إثراء المعنى وتنشيط التلقي مع حفظ وحدة المرجع.

الكلمات المفتاحية: (الإحالة الضّميرية – التّحليل النّحوي الدّلالي – تماسك النّص — همزية ابن الحدّاد الأندلسي).

Pronominal reference in the Hamziyya of Ibn al-Haddad al-Andalusi (d. 480 AH)

Lect. Salah Mohsin Hazim
Department of Arabic Language, College of Education for Human Sciences, Al-Hamdaniya University, Iraq

Abstract

This study sheds light on the phenomenon of pronominal reference in Ibn al-Haddad al-Andalusi's Hamziyya from a grammatical-semantic perspective, considering it an effective mechanism in semantic production and achieving cohesion within the structure of the poetic text. The research is based on the central question of the functional role of pronominal reference in organizing semantic relationships and ensuring the continuity of the referent, extending beyond the sentence to encompass the entire text. It was therefore necessary to employ the mechanisms of the applied grammatical-semantic method, which focuses on analyzing the grammatical structures of pronouns and linking them to semantic and contextual masks. The Hamziyya was chosen as a case study due to the density of pronominal references throughout the text and the multiplicity of their referents and rhetorical structures, making it a rich field for textual analysis.

The study concluded with a number of noteworthy findings:

* The pronoun performs interactive, systemic functions that achieve semantic coherence and harmony.
* The effectiveness of prior reference in ensuring the continuity of the semantic reference, particularly the central reference of the praised one.
* Contextual reference strengthens the connection of the discourse to its historical and political context and intensifies its persuasive effectiveness.
* The functional centrality of shifts in perspective and pronoun changes in enriching meaning and stimulating reception while preserving the unity of the referent.

Keywords: (Pronominal reference – Semantic grammatical analysis – Text cohesion – Hamziyya of Ibn al-Haddad al-Andalusi).

المقدّمة

تتجذر موقعية الضمير كأساس بنيوي في النظام النحوي العربي ، تبعا لوظائفه الإحالية الرابطة بين عناصر الكلام داخل السياق ، فوظيفته البنائية لا تنحصر في الاندراج محلّ الاسم الظاهر على المستوى التركيبي ، بل تنساب اسهاماته إلى في تنظيم العلاقات الدلاليّة وضبط إحالة المعنى في تخوم النصّ. وقد عالج النّحاة هذه الجزئية ضمن مباحث الإضمار والعائد ، غير أنّ معالجاتهم بقت في قيد الجزئية ، ولم تتّجه إلى دراستها من زاوية كونها آليّة دلاليّة فاعلة في بناء النصّ.

وتبرز أهمّية هذا الموضوع في كونه يتناول الإحالة الضّمائريّة ضمن مقاربة نحويّة دلاليّة، تنطلق من البنية التّركيبيّة وتُعنى بأثرها في توجيه المعنى داخل السّياق. ويكتسب هذا التّناول أهميّة خاصّة عند تطبيقه على النّص الشّعري العمودي، لما يتّسم به من كثافة لغويّة واعتماد على الإحالة في حفظ استمراريّة المرجع. ومن ثمّ، يُسهم تحليل الضّمائر في الكشف عن دورها في تحقيق التّرابط الدّلالي داخل النّص، بوصفها آليّة نحويّة مؤثّرة في بناء المعنى.

وقد جاء اختيار هذا الموضوع بدافع الرغبة في إبراز قدرة النّحو العربي على مقاربة النّصوص الأدبيّة مقاربة تتجاوز حدود الجملة المفردة، وتكشف عن أبعاد دلاليّة أوسع. كما يرجع هذا الاختيار إلى ملاحظة قلّة الدّراسات التّطبيقيّة التي تتناول الإحالة الضّمائريّة في نص شعري كامل، وإلى ما تتميّز به همزيّة ابن الحدّاد الأندلسي من كثافة ضميريّة، وطابع خطابي واضح، يجعلها مادّة مناسبة للكشف عن الوظيفة الدّلاليّة للضّمير.

إشكاليّة الدّراسة

تنطلق هذه الدّراسة من الإشكاليّة الآتية:

كيف أسهمت الإحالة الضمائريّة في همزيّة ابن الحدّاد الأندلسي في بناء الدّلالة وتحقيق تماسك النصّ، في ضوء التّحليل النحوي؟

ويتفرّع عن هذه الإشكاليّة عدد من التّساؤلات الجزئيّة، من قبيل:

- ✓ **ما أنواع الإحالة الضّمائريّة الواردة في القصيدة؟**
- ✓ **ما ماهية العلاقة بين الضّمير ومرجعه؟**
- ✓ **كيف يؤثّر توظيف الضّمائر في توجيه المعنى داخل الخطاب الشّعري؟**

وتهدف هذه الدراسة إلى دراسة الضّمائر في نصّ همزيّة ابن الحدّاد من منظار نحوي دلالي. فهي تسعى أولاً إلى تتبّع الضّمائر الواردة في النّص وتحديد أنواعها ومواقعها الإعرابيّة، ثمّ الكشف عن وظيفتها الإحاليّة ودورها في توجيه المعنى ضمن السّياق الشّعري. كما تهدف الدّراسة إلى إبراز مساهمة الإحالة الضّمائريّة في تحقيق التّرابط الدّلالي وتماسك النّص، مع التّأكيد على جدوى المقاربة النّحويّة الدّلالية كأداة لتحليل النّصوص الأدبيّة.

وتحدّد هذه الدراسة حدودها بالتركيز على نماذج مختارة من الإحالة الضمائرية في نصّ همزيّة ابن الحدّاد للأندلسي. فهي تقتصر على تحليل الضمائر من حيث أنواعها ووظائفها الإحالية في النص، دون التطرّق إلى وسائل الإحالة الأخرى أو مظاهر التماسك النصّي المختلفة. كما لا تشمل الدراسة المقارنات النصّية مع أعمال شعرية أخرى، ولا تبحث في الخلفية التاريخية للأدب الأندلسي إلا بما يخدم فهم السياق الخاص بالنصّ محل الدراسة.

وقد اعتمدت الدراسة أسلوبًا **نحويًّا دلاليًّا تطبيقيًّا**، ينطلق من التّحليل الإعرابي للضّمير، وتحديد مرجعه، ثم ينتقل إلى بيان أثره الدّلالي في السّياق. وقد تمّ الاستئناس ببعض مفاهيم التّماسك النصّي استئناسًا إجرائيًا يخدم التّحليل، دون اتّخاذها إطارًا نظريًّا حاكمًا.

أما الدّراسات السّابقة فقد اطّلعت الدّراسة على جملة من البحوث التي تناولت الضّمير في النّحو العربي، وأخرى اهتمّت بالإحالة في النّصوص الأدبيّة، غير أنّ معظم هذه الدّراسات إمّا توقّفت عند الجانب النّظري، أو عالجت الإحالة في إطار لساني عام، دون دراسة تطبيقيّة نحويّة دلاليّة مركّزة على نص شعري عمودي، وهو ما تسعى هذه الدّراسة إلى تداركه.

مفاهيم الإحالة الضّمائرية ، من النّحو إلى الدّلالة

1 .التّعريف النّظري للضّمير والإحالة :

تُعدّ الإحالة بالضّمير من القضايا المركزيّة التي شكّلت مجال التقاء واضح بين الدّرس النّحوي العربي القديم واللّسانيات النّصية الحديثة؛ إذ انشغل بها القدماء من منظور تركيبي–وظيفي، بينما أعاد المحدّثون مقاربتها ضمن نسق دلالي–نصّي أوسع، وهو ما يجعل النّظر فيها ضرورة منهجيّة لفهم آليات التّرابط داخل الخطاب.

أ_ الضّمير في النّحو العربي (كلام القدماء):

نظر النّحاة العرب الأوائل إلى الضّمير بوصفه أداة لغويّة تؤدّي وظيفة النّيابة والاختصار، وتُسهم في الاقتصاد اللّغوي دون الإخلال بالمعنى. ويشير إسماعيل نائل محمد إلى أن النّحاة قد عنوا بمفهوم الضّمير وعدّوه «كناية عن اسم ظاهر سبق ذكره» (إسماعيل، ن، م .ص 100)، وهو تعريف يبرز بوضوح الطّبيعة الإحالية للضّمير، ويربط وجوده بسياق لغوي سابق عليه. ولم يكتفِ القدماء بالنّظر إلى الضّمير من زاوية الإحلال الشّكلي، بل أكّدوا دوره الوظيفي في تحقيق تماسك الكلام واستقامة المعنى، إذ عدّوه عنصراً رابطاً لا غنى عنه داخل البنية التّركيبية. وفي هذا السّياق يذهب المصيفي (2016) إلى أنّ «الضّمير موضوع لغرض الرّبط، ولولاه لأصبح الأسلوب مبتوراً غير مستوفٍ للفائدة» (المصيفي، 2016، ص 2)، وهو قول

يكشف وعي النّحاة المبكّر بأثر الضّمير في ضمان تواصل المعنى وانسجام الخطاب، وإن لم يُصاغ ذلك آنذاك في إطار مصطلح "الاتّساق النصي."

ب_ الإحالة في اللّسانيات الحديثة:

انتقل مفهوم الإحالة في الدّراسات اللّسانية المعاصرة من كونه وظيفة تركيبية محدودة إلى كونه آليّة دلاليّة نصّية تتحقّق داخل السّياق. فقد عُرِّفت الإحالة بأنها «علاقة دلاليّة تكتسب دلالاتها مما تشير إليه في المقام أو النّص» (صابر وعلي، 2021، ص 515)، وهو تعريف يوسّع دائرة الإحالة لتشمل السّياق التّداولي والنّصي معاً، ولا يحصرها في البنية السّطحية للجملة. ويرى علماء لغة النّص أن الإحالة تمثّل إحدى الرّكائز الأساسيّة للاتّساق، إذ تقوم على إقامة «علاقة بين علامة لغويّة (الضّمير) وما تشير إليه (المرجع)، وهي جوهر العمليّة الاتّساقية في النّص» (إسماعيل، 2011، ص 100). وبهذا المعنى، يغدو الضّمير أداة نصيّة فاعلة في توجيه القارئ وربط وحدات الخطاب بعضها ببعض، بما يسمح بإنتاج معنى متماسك يتجاوز حدود الجملة المفردة.

2 .أنواع الإحالة الضّمائرية وجدوائيتها في تماسك النّص

تُصنَّف الإحالة الضّمائرية في اللّسانيات النّصية بحسب اتّجاه الإشارة وعلاقة العنصر الإحالي بمرجعه داخل النّص أو خارجه، وهو تصنيف لا يكتفي بالوصف الشّكلي، بل يكشف عن الوظيفة النّصية التي ينجزها الضّمير في بناء التّماسك الدّلالي. ومن هذا المنطلق، يمكن التّمييز بين ثلاثة أنماط رئيسة للإحالة الضّمائرية، لكل منها دور مخصوص في تنظيم الخطاب وتوجيه المتلقّي.

أ_ الإحالة القبليّة:(Anaphoric Reference)

تُعد الإحالة القبليّة أكثر أنماط الإحالة الضّمائرية شيوعاً في النّصوص، وهي التي «يكون فيها المرجع سابقاً على العنّصر الإحالي» (إسماعيل، 2011، ص 106). ويكمن جوهر هذا النّوع في ربط العناصر اللّاحقة بما سبق ذكره، بما يضمن استمراريّة الموضوع داخل النّص ويحول دون الانقطاع الدّلالي. ولهذا تؤدّي الإحالة القبليّة وظيفة تنظيميّة واضحة، إذ تسهم في تثبيت المرجع في ذهن القارئ، وتتيح للكاتب الانتقال بين الجمل دون تكرار مباشر للأسماء. وفي هذا السّياق يؤكّد إبراهيم أن هذا النّوع من الإحالة «يحافظ على استمراريّة الموضوع ويمنع تشتّت القارئ عبر ربط اللاّحق بالسّابق» (إبراهيم، 2024، ص 430)، وهو ما يجعلها أداة مركزيّة في تحقيق الاتّساق النّصي، خاصّة في الخطابات السّردية والحجاجيّة.

ب_ الإحالة البعدية:(Cataphoric Reference)

تتحقّق الإحالة البعدية عندما يحيل الضّمير إلى عنصر لم يُذكر بعد في السياق النصي، أي عندما يتقدم العنصر الإحالي على مرجعه. وقد عُرِّفت بأنها الإحالة التي «يحيل فيها الضّمير على عنصر سيأتي لاحقاً في النص» (إسماعيل، 2011، ص 106). ويختلف الدور النصي لهذا النمط عن الإحالة القبليّة؛ إذ لا يهدف أساساً إلى حفظ الاستمراريّة، بل إلى توجيه انتباه القارئ واستدعاء حالة من الترقب الدلالي. وغالباً ما تُستخدم الإحالة البعدية بوصفها تقنية أسلوبية «لإثارة التشويق ولفت الانتباه للمرجع القادم» (إسماعيل، 2011، ص 106)، وهو ما يمنح الخطاب قدراً من الحيوية، ويجعل المتلقّي في حالة انتظار نشط للعنصر المحال إليه.

جـ_ الإحالة المقامية/الخارجية:(Exophoric Reference)

أما الإحالة المقامية، فهي لا تُحيل إلى عنصر لغوي داخل النص، وإنما تتجه نحو عناصر خارجية في سياق التخاطب، وقد وُصفت بأنها الإحالة التي «تحيل إلى خارج النص، أي إلى عناصر في سياق الموقف (المتكلم

والمخاطب)» (خنياب & مدلول، 2020، ص 1). وعلى الرغم من أن هذا النوع لا يحقّق الاتّساق الداخلي بالمعنى الضيق، فإنه يؤدّي دوراً حيويًّا في توسيع أفق الخطاب وربطه بالواقع التداولي. ويشير الباحثون إلى أن هذه الإحالة «تساهم في انسجام النص عبر ربطه بالواقع الخارجي، مما يجعل المتلقّي شريكاً في فضاء الخطاب» (مراشدة، 2025، ص 9)، إذ يُستدعى القارئ أو السامع ليملأ فراغ الإحالة اعتماداً على معرفته بالمقام، لا على البنية اللغوية وحدها.

3 .وظيفة الإحالة الخطابيّة: الاتّساق (Cohesion) والانسجام(Coherence)

تضطلع الإحالة، ولا سيما الإحالة الضّمائرية، بوظيفة خطابيّة مركزيّة في بناء ما يُعرف بـ«الوحدة النصّية»، إذ لا يقتصر دورها على الرّبط الشّكلي بين وحدات الكلام، بل يتجاوز ذلك إلى الإسهام في إنتاج المعنى الكلّي للنّص. ويتحقّق هذا الدّور عبر مستويين متكاملين ومترابطين، هما: مستوى الاتّساق، ومستوى الانسجام.

أ_ تحقيق الاتّساق:(Cohesion)

يتجلّى الاتّساق في المستوى السّطحي للنّص، حيث تعمل الضّمائر بوصفها أدوات «ربط رصفي» تصل بين العناصر اللّفظية المتجاورة، وتمنع التفكّك الناتج عن التّكرار أو الانقطاع. وتُسهم الإحالة في هذا المستوى في إحكام العلاقات بين الجمل والعبارات، بما يجعل النّص سلسلة مترابطة من الوحدات اللّغوية لا مجرد تراكم عشوائي للألفاظ. وفي هذا السّياق يذهب إبراهيم إلى أن الإحالة «هي الرّكن الرّئيس الذي يلف النّص بسياج متين ويجعله وحدة واحدة» (إبراهيم، 2024، ص 2109)، وهو توصيف يبرز طبيعتها البنيوية ودورها في ضبط تماسك الخطاب. ويعزّز إسماعيل هذا التّصور حين يؤكّد أن الإحالة تُعدّ «الوسيلة الأكثر قوّة في صنع التّماسك الدّلالي للنّص» (إسماعيل، 2011، ص 100)، إذ تتيح إعادة استحضار المرجع دون التّصريح به لفظاً، مما يحقّق الاقتصاد اللّغوي ويخدم استمراريّة المعنى.

ب_ تحقيق الانسجام:(Coherence)

لا يقف دور الإحالة عند حدود الرّبط اللّفظي، بل يمتد إلى مستوى أعمق يتمثل في الرّبط المفهومي والدّلالي، وهو ما يُعرف بالانسجام. ففي هذا المستوى، تسهم الإحالة في تنظيم العلاقات بين الأفكار، وتوجيه عملية التّأويل بما يسمح للقارئ بفهم النّص بوصفه كلاً دلاليًّا متكاملاً. ويشير محجوبي إلى أن الإحالة تُسهم في «تأويل الخطاب وكشف أسراره» (محجوبي، 2021، ص 252)، أي أنّها تُعد آلية إرشادية تقود المتلقّي إلى بناء المعنى عبر تتبّع المرجع وتحوّلاته داخل النّص. ومن ثمّ، فإن الإحالة الضّميرية تجعل «أوّل النّص طريقاً وسبيلاً لفهم آخره، مما يحقّق الوحدة العضويّة والموضوعيّة للقصيدة أو السّورة» (شتيوي، 2025، ص 3)، وهو ما يكشف عن دورها في تحقيق الانسجام العام، لا بوصفها أداة لغويّة فحسب، بل باعتبارها استراتيجيّة خطابية تُسهم في توجيه القراءة وضبط أفق التّلقي.

٤_ سياق النّص وعيّنته

أ .الشّاعر والنّص:

يُعدّ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسي الأندلسي (ت 480هـ) من الأسماء البارزة في المشهد الشّعري الأندلسي خلال عصر الطّوائف، وهو عصر اتّسم بتفكّك السّلطة المركزيّة، وتعدّد الإمارات، وتحوّل الخطاب الشّعري إلى أداة سياسيّة وثقافيّة فاعلة في تثبيت الشّرعية وبناء الصّورة الرّمزية للحاكم. وقد وجد ابن الحدّاد في بلاط المعتصم بن صمادح، صاحب المريّة، فضاءً ملائمًا لبروز صوته الشّعري، فكانت همزيّته من النّصوص التي تجاوزت المدح التّقليدي إلى بناء خطاب سياسي–رمزي متكامل.

ولا تنبع أهمية هذه الهمزيّة من قيمتها الفنيّة فحسب، بل من كونها نصًّا مشحونًا بالإحالات الخطابيّة التي تربط بين الذّات الشّاعرة، والممدوح، والسّياق التّاريخي الذي أنتج القصيدة. ومن هذا المنطلق، فإن دراسة الإحالة الضّميرية في هذا النّص لا تنطلق من مستوى لغوي صرف، وإنما من وعي بوظيفة الضّمير بوصفه أداة خطابيّة تُسهم في تشكيل العلاقة بين الشّاعر وواقعه. وفي هذا السّياق يؤكّد إبراهيم أن «الضّمير لا يؤدّي وظيفته الإحالية بمعزل عن سياق المتكلّم والمقام الذي قيل فيه النّص» (إبراهيم، 2024، ص 430)، وهو ما ينسجم مع طبيعة الخطاب المدحي في الأندلس، حيث يتداخل الذّاتي بالسّياسي، واللّغوي بالتّاريخي.

وقد كُتبت هذه القصيدة في ظل ظروف سياسيّة مضطربة، اتّسمت بتكاثر الأخطار الخارجيّة، وتنافس القوى المحليّة، مما جعل الخطاب الشّعري أداة من أدوات الإقناع والتّعبئة الرّمزية. لذلك تبرز في النّص الإحالة المقامية (الخارجيّة) بوصفها عنصرًا رئيسًا في توجيه المعنى، إذ لا تحيل الضّمائر على مراجع لغويّة داخل النّص فحسب، بل تتّجه نحو شخصيّات واقعيّة خارج النّص، في مقدمتها الشّاعر ذاته والممدوح. ويشير مراشدة إلى أن هذا النّمط من الإحالة «يساهم في تعزيز الأثر الإقناعي للنّص عبر ربطه بالواقع الخارجي، مما يجعل المتلقّي شريكًا في فضاء الخطاب» (مراشدة، 2025، ص 9). وبهذا المعنى، تتحوّل الضّمائر في همزيّة ابن الحدّاد من مجرّد أدوات إحاليّة إلى علامات خطابيّة تُنتج المعنى في تفاعلها مع المقام التّاريخي والسّياسي.

ب الهمزيّة موضوعًا: أثر الغرض الشّعري على الإحالة

يتحدّد البناء الإحالي في همزيّة ابن الحدّاد تحديدًا وثيقًا بالغرض الشّعري الذي تنهض عليه القصيدة، إذ تجمع بين المدح ووصف المعارك، وهما غرضان يفرضان توزيعًا خاصًّا للضّمائر، ويكشفان عن استراتيجيّة خطابيّة واعيّة في توجيه المتلقّي.

ضمائر الممدوح:

يطغى في النّص استعمال ضمير الغائب (هو) وضمير المخاطب (أنت) للإشارة إلى الممدوح، وهو اختيار لا يخلو من دلالة، إذ يوازن بين التّعظيم غير المباشر والحضور الخطابي المباشر. وتعمل هذه الإحالات على تثبيت الممدوح بوصفه مركز الثّقل الدّلالي للنّص، بما ينسجم مع طبيعة المدح السّياسي. وفي هذا السياق يشير شتيوي إلى أنّ هذه الإحالات «تهدف إلى تثبيت مرجع الفخر والتّعظيم في ذهن المتلقّي» (شتيوي، 2025، ص 2115)، كما يذهب إلى أنّ الضّمائر العائدة على الممدوح تُساعد في «خلق شبكة من الرّوابط التي تجعل الممدوح هو المحور الدّلالي الذي يدور حوله النّص كاملاً» (شتيوي، 2025، ص 2130). وبذلك تتجاوز الضّمائر وظيفتها الإحالية المباشرة لتؤدّي وظيفة بنائيّة في تشكيل المعنى العام للقصيدة.

ضمائر العدو:

في مقابل ذلك، تُسند الإحالات الضّمائرية المتعلّقة بالعدو غالبًا إلى صيغ الغيبة الجمعيّة، في سياق يتسم بالتّقليل والتّحقير، وهو ما يخدم البعد الحجاجي للنّص. فالإحالة هنا لا تُسهم فقط في تحديد المرجع، بل في بناء صورة نمطية للعدو بوصفه كيانًا هشًّا في مقابل تماسك الأنا (الشّاعر/الممدوح). ويؤكد إسماعيل أن هذا التّقابل الإحالي يُسهم في «رسم صورة الصّراع وبناء الوحدة النّصية من خلال التّقابل بين الأنا والآخر» (إسماعيل، 2011، ص 106)، وهو ما يظهر جليًّا في المقاطع الحربيّة من القصيدة.

التّماسك النّصي:

إن تكرار الإحالات العائدة على أطراف الصّراع يفضي إلى تكوين ما يُعرف بالسّلاسل الإحاليّة، وهي آلية نصّية تضمن استمراريّة المرجع عبر تتابع الأبيات. ويشير هاشم وحسّوني إلى أنّ هذه السّلاسل «تضمن

اتّساق النّص وانسجامه عبر تتابع الأبيات» (هاشم و حسوني، 2021، ص 1)، وهو ما يفسّر إحساس القارئ بوحدة النّص رغم امتداده وطوله.

.جـ العيّنة المعتمدة: شموليّة الدّراسة التّحليليّة

تنطلق هذه الدّراسة من اعتماد همزيّة ابن الحداد الأندلسي بكامل أبياتها بوصفها عيّنة تحليليّة، انطلاقًا من قناعة منهجيّة مفادها أن النّص الشّعري لا يُفهم في أجزائه المعزولة، بل في كلّيته البنيويّة والدلاليّة. ويؤكّد المصيفي أن معالجة النّص بوصفه «بنية كبرى متكاملة» (المصيفي، 2016، ص 2) شرط أساس لفهم آليات التّماسك والانسجام.

ومن ثمّ، لا يقتصر هذا البحث على شواهد منتقاة، بل يسعى إلى تتبّع «حركة الضّمائر عبر القصيدة كاملة لبيان كيفية تحقيق الوحدة النّصية والتّرابط المفهومي واللّفظي» (إسماعيل، 2011، ص 100). إن هذا التتبع الكلي يسمح برصد التّفاعلات الإحالية في سياقها الطّبيعي، ويكشف عن انتظامها الداخلي بوصفها نظامًا دلاليًا متماسكًا، بحيث يغدو النّص «بناءً مرصوصًا يأخذ بعضه برقاب بعض» (الداودي، 2021، ص 187).

الإحالة الضّمائرية بحسب موقعها النّحوي والتّركيبي

يُعدّ الموقع الإعرابي للضّمير في القصيدة العموديّة عاملًا موجّهًا للمعنى، إذ لا يقتصر حضوره على سدّ فراغ تركيبي، بل يتجاوز ذلك إلى تأدية وظيفة نصّية تتّصل ببناء الاتّساق والانسجام معًا. فالضّمير، بحكم قابليّته للحذف والإضمار، يُعدّ «العنصر الأكثر قدرة على تحقيق التآلف ليس على مستوى البيت فحسب، بل على امتداد النّص بأكمله» (إسماعيل، 2011، ص 100). ومن ثمّ، فإن تتبّع الضّمائر في مواردها النّحوية المختلفة يتيح الوقوف على الكيفيّة التي تُدار بها الإحالة داخل القصيدة، وشرائط الحفاظ على استمراريّة المرجع دون الإخلال بإيقاع الشّعر أو كثافته الدّلالية.

1- **الإحالة بالضّمائر المرفوعة (ضمائر الفصل والوصل)**

أ. وظيفة ضمائر الرّفع المتّصلة (واو الجماعة)

وردت ضمائر الرّفع المتّصلة في همزيّة ابن الحدّاد بنسق تكراري لا سيّما واو الجماعة، وذلك في سياق وصف ملحمة الصّراع بما تحتويها من مناظر عنفية تصادمية ، وتتولّى هذه الضّمائر الإحالة على جماعات بشريّة محدّدة منضوية في حقل العدو ، مع الإبقاء على المرجع في حالة غياب اسميّ مقصود. وينجلي المقصد بإسهام أوضح في قوله :

فأعجَبْ لهمْ وَتَرُوا نَفْسِي وما شَعَرُوا ولا دَرَوْا مَنْ بِعَيْنَيْ رِيمِهِمْ وجَأُوْا

إن تكرار الواو في هذه الموارد «وتروا» و«شعروا» و«دروا» و«وجأوا» أعطى الإحالة بعد تعريفيا منحصرا بجماعة معروفة في سياق الخطاب من دون أن تسمى تصريحا ، لذلك ينبثق التأثير الإحالي هنا من عدة أوجه ، فهي من جهة تربط الأفعال بفاعلها الغائب، ومن جهة أخرى تحفظ استمراريّة المرجع (العدو) عبر تتابع الأبيات.

ويؤكد المصيفي أن هذا النّوع من الإحالة يعمل بوصفه «الرابطة التي تنظم تتابع التراكيب بعضها ببعض» (المصيفي، 2016، ص 2)، إذ يمنع تفكك السّلسلة السّردية في وصف المعركة. مضافا لذلك أن الإحالة هنا تتيح «تحقيق التّماسك النّصي عبر جعل التّراكيب مرتبطة دلاليًا بخطاب عام» (المصيفي، 2016، ص 2)، هو خطاب الصّراع والتّقابل بين طرفين.

وتبرز قيمة هذا الاختيار الضّميري في أن الشّاعر يتحاشى تكرار الأسماء الظّاهرة ، مكتفيًا بالإحالة التي تحقّق ما يُعرف بـالاقتصاد اللّغوي ، وهو ما ينسجم مع طبيعة الشّعر القائم على التّكثيف. وقد أشار صابر وعلي إلى أن هذا الاقتصاد يحقّق الاتّساق من خلال «إعادة تنشيط المرجع في ذهن المتلقّي دون التّصريح به لفظيًا» (صابر و علي، 2021، ص 515). وهكذا، تحافظ واو الجماعة على وحدة المرجع عبر مقاطع متعدّدة من القصيدة، دون أن يشعر القارئ بانقطاع أو غموض.

ب. وظيفة ضمير الفصل المنفصل (هو)

بمطالعة دقيقة لثنايا هذا النص الهمزي نلحظ أن تدفق منسوب الإحالات لم يقتصر على ضمائر الرّفع المتّصلة، بل تم توظيف ضمير الفصل المنفصل في سياق مدحي ثري بالدوال التركيبية ذات المغزى القصدي ، حيث يتصير إلى أداة تأكيد وحصر دلاليّ ، يتداعى إلى ذهن القارئ في قوله:

مُمَلَّكٌ هو من سَمْتِ الهُدَى مَلِكٌ وواحدٌ هو في شَيْدِ العُلى مَلأُ

والملاحظ في الملمح الإحالي هنا تخطيه طابع البساطة والسطحية ، نظرا لاندماجه في سياق تداخلي فصل بين المبتدأ والخبر، ويمنع توهّم الوصفيّة أو التّبعيّة. وبهذا يتحقّق ما يسميه إسماعيل «تأكيد النّسبة وحصر المسند إليه» (إسماعيل، 2011، ص 101)، إذ تُقصر صفات التمليك والتّفرد وعلو المنزلة على الممدوح وحده دون سواه.

وتتبلور محورية النسق الإحالي في تأطير الضمير ضمن ارتكازات البنية المدحيّة للنّص، إذ لا يكتفي ابن الحداد بإسناد الصّفات إلى الممدوح، بل يُحكم هذا التواشج الإسنادي نحويًّا ودلاليًّا. وقد أشار أحمد إلى أن هذا النّمط من الإحالات ينحو لـ «إلفات المتلقّي إلى منزلة الممدوح وتحقيق مراد المتكلّم بإيراد معانٍ جليلة» (أحمد، 2023، ص 1). فالضّمير المنفصل هنا ليس محض ترف لغوي فائض عن الحاجة ، بل يؤدّي وظيفة تداوليّة ماثلة في توجيه القراءة نحو تعظيم الممدوح وترسيخ صورته بوصفه محور الخطاب.

وعليه، فإنّ ضمير الفصل في هذا الموضع يتحوّل إلى «ركيزة إحاليّة تساهم في إحكام بنية النّص وتماسكها دلاليًّا» (إسماعيل، 2011، ص 100)، لأنه يربط بين الصّفات المدحيّة والمرجع المركزي (الممدوح) ربطًا مانعًا للتّأويل المزدوج أو التّشتت الدّلالي.

2- الإحالة بضمائر النّصب والجر

تنتشر شبكات الإحالة عبر تأطيرات ضمائرية ناصبة وجارة ، سواء كانت متّصلة بالفعل أم بالأسماء والحروف، إذ تشكّل ارتباطاتها مستوىً تواشجيا دقيقًا يعمل على ربط المعاني الجزئيّة بالبنية الكلّية للنّص. وقد أشار أحمد إلى أن هذا النمط الإحالي يُنتج «شبكة من العلائق التي تربط أجزاء النّص بإحكام» (أحمد، 2023، ص 1)، وهو ما يتبدّى جليًا في توظيف الشّاعر للضّمائر بوصفها أدوات إحكام لا مجرد عناصر نحويّة تابعة.

أ. الإحالة بضمائر الجر المتّصلة بالأسماء والحروف

ترد ضمائر الجر في القصيدة بكثافة لافتة، خصوصًا في سياق الحديث عن العدو أو الممدوح، حيث تُسهم في تثبيت المرجع وإبقائه حاضرًا في الذّهن عبر صيغ غير مباشرة. ويتّضح ذلك في قول الشّاعر:

إذا تجلّى إلى أبصارِهِمْ صَعِقُوا وإن تغلغلَ في أفكارِهِمْ هَمَؤُوا

فالضّمير «هم» في «أبصارهم» و«أفكارهم» يحيل على جماعة سبق ذكرها في سياق المعركة، دون الحاجة إلى إعادة تسميتها. وبهذا، يصبح التّركيب اللّغوي – كما يرى عبد النبي – «مرتبطًا بالمرجع الذي يمثله،

ملزمًا المتلقّي بالنظر إلى ما تمت الإحالة إليه لفهم الخطاب» (عبد النبي، 2025، ص 577). إذ إن تكرار الإحالة بالجر هنا لا يؤدّي وظيفة نحوية فحسب، بل يُراكم صورة العدو بوصفه كتلة واحدة تتشارك الرؤية والفكر والانفعال، مما يخدم البعد الحجاجي للنص.

ويظهر هذا النّمط الإحالي كذلك في قوله:

وقد بدا عن عرانينِ الظُّبى شَمَمٌ وفي أنوفِهِمُ الإرغامُ والفَطَأُ

فالضّمير المجرور في «أنوفهم» يواصل الإحالة على المرجع نفسه، لكنه هذه المرة يربطه بصورة الهزيمة والانكسار، وهو ما يجعل الإحالة جزءًا من البناء التصويري، لا مجرد رابط لغوي. وهكذا تتكامل الإحالة بالجر مع الدلالة البلاغية لتشكّل وحدة معنوية متماسكة.

ب. الإحالة بضمائر الجر العائدة على الممدوح

في مقابل ذلك، يوظف ابن الحداد ضمائر الجر العائدة على الممدوح توظيفًا يرسّخ الحضور الإيجابي والهيمنة الرمزية. وينساق ذلك إلى العيان في قوله:

وللثغورِ بذكرى عدلِهِ وَلَعٌ وللقلوبِ لمثوى حُبِّهِ لَطَأُ

فالضّمير «الهاء» في «عدله» و«حبه» يحيل إحالة قبليّة واضحة على الممدوح، ويعمل بوصفه محورًا دلاليًا تستمد منه الصفات والمعاني. وقد وصف شتيوي هذا النوع من الإحالة بأنه «سياج متين يلف النص ويجمع بين المفردات والجمل البسيطة والنص العام كله» (شتيوي، 2025، ص 2109). فالممدوح لا يُذكر اسمُه في كل بيت، لكنه يظل حاضرًا بمعية هذه الروابط الضّميرية التي تعيد تنشيط المرجع باستمرار.

وتُحقّق هذه الإحالة بالجر ما يسميه المصيفي «الاستمراريّة الموضوعية» (المصيفي، 2016، ص 2)، إذ يبقى الممدوح مركز الثقل الدلالي حتى في الأبيات التي لا يصرّح فيها باسمه. وبهذا تتحول الضّمائر المجرورة إلى آلية خفية لضمان وحدة النص، دون إخلال بانسيابية الإيقاع أو كثافة الصورة الشعرية.

ج. الإحالة بضمائر النّصب المتّصلة بالفعل

إلى جانب ضمائر الجر، تسهم ضمائر النّصب المتّصلة بالفعل في بناء الإحالة الدّينامية داخل النّص، خصوصًا في سياق الحركة والحدث. ويظهر ذلك في قوله:

تُغني أياديهِ ما تُغني صوارمُهُ وللْغِناءِ هو الإقلالُ والفَنَأُ

فالضّمير «الهاء» في «أياديه» و«صوارمه» من شرائط تشكيل وظيفة إحالية مزدوجة؛ إذ يحيل على الممدوح، ويُسند إليه في آنٍ واحدٍ أفعال العطاء والقوة. ولا تكون هنا مجرد إحالة مرجعية، بل إحالة تقويمية تكون قطعة لازمة لبناء صورة مثالية للممدوح، تجمع بين السّلم والحرب، والعطاء والبأس.

ويُلاحظ أن هذا الضّمير يتكرر في سياقات دلالية متقاربة، مما يكوّن سلسلة إحالية مستقرة تجعل المرجع حاضرًا بوصفه فاعلًا دائمًا في مجريات الأحداث. وهذا ما يفسر قول إسماعيل إن البنية الإحالية للضمائر تُعد «وسيلة قوية لصنع التماسك الدلالي وتجسيد الوحدة العامة للنص» (إسماعيل، 2011، ص 100).

إن تتبع ضمائر النّصب والجر في الهمزيّة، كما يتضح في الصفحات السابقة، يكشف أن ابن الحداد لم يستخدم الضّمير بوصفه عنصرًا تابعًا، بل بوصفه أداة استراتيجية لإدارة المعنى، وتثبيت المرجع، وربط الأبيات ضمن شبكة إحالية واحدة تضمن الاتّساق والانسجام معًا.

الوظائف الدلالية والخطابيّة لأنواع الإحالة

1- الإحالة القبليّة (Anaphoric Reference) والاتّساق النّصي

تُشكّل الإحالة القبليّة العمود الفقري لتماسك قصيدة الهمزيّة لابن الحداد الأندلسي، إذ يقوم البناء الإحالي فيها على تقديم الاسم الظّاهر – الممدوح – في مطالع المقاطع، ثم إحاطته بسلسلة من الضّمائر العائدة عليه، بما يحقّق ما يسميه الدارسون «الاستمراريّة المرجعية» التي تضمن بقاء المعنى متّصلا عبر الأبيات دون انقطاع. فالنص المدحي، بحكم طبيعته، لا يقوم على سرد أحداث منفصلة، بل على تراكم صفات وأفعال تُسند إلى مرجع واحد، وهو ما يجعل الإحالة القبليّة آلية لا غنى عنها لضبط هذا التراكم.

أ- هيمنة الإحالة القبليّة وبناء خيوط المعنى المتتابعة

تظهر هيمنة الإحالة القبليّة في الهمزيّة بوصفها ضرورة فنيّة ومنهجيّة في القصيدة العموديّة، حيث «تتوالد الأبيات وتتنامى بصورة رأسيّة»، ويكون الانتقال من بيت إلى آخر انتقالًا دلاليًا لا شكليًا. ففي نحو قوله:

ملكٌ إذا نُسبتْ أخلاقُهُ عُرِفَتْ في الحِلمِ والبأسِ والإقدامِ والشممِ

يتقدم المرجع الاسمي (ملك) في صدر البيت ، وذلك لدواعي ارتباطية تجعل منه مرجعا مقصديا تدور حوله المداليل ، بدليل تعاقب الإحالات الضّميرية عليه في الأبيات اللّاحقة، من مثل قوله:

تُغني أياديهِ ما تُغني صوارمُهُ ويُطفئُ الحِلمُ منهُ سورةَ الضَّرِمِ

فالضّمائر (أخلاقه، أياديه، صوارمه، منه) تمثل إحالات قبليّة تعود على المرجع نفسه، وتعمل بوصفها خيوطًا دلالية تربط الصفات بعضها ببعض، وتحوّل القصيدة إلى بنية متماسكة، لا محض أبيات مستقلة. وهذا ما يجعل الضّمير – كما يشير إسماعيل – «أهم مظهر من مظاهر التماسك النصي» (إسماعيل، 2011، ص 100).

ولا يقتصر دور هذه الإحالات على الربط الشكلي، بل تسهم في تنظيم المعنى، إذ تجعل المتلقّي ينتقل من صفة إلى أخرى وهو محتفظ بالمرجع نفسه في وعيه، دون تشويش أو لبس. ويؤكد إبراهيم أن الإحالة القبليّة «تحافظ على استمراريّة الموضوع وتمنع تشتت القارئ عبر ربط اللاحق بالسابق» (إبراهيم، 2024، ص 430)، وهو ما يتجسد بوضوح في هذا النسق الإحالي المتتابع.

ومن ثمّ، فإن تتبع عائد الضّمير عبر الأبيات يكشف عن خيط دلالي واحد يربط أفعال الممدوح وصفاته، ويجعل القصيدة «بنية كبرى متكاملة» تقوم على تداخل الدرس النّحوي القديم مع منجزات اللسانيات النصية، دون تعارض بينهما.

ب- دلالة الغياب في ضمائر الممدوح: الحضور دون تكرار

من الخصائص الخطابيّة اللّافتة في همزية ابن الحداد أن الممدوح يحضر في النص حضورًا كثيفًا، رغم غيابه الاسمي في معظم الأبيات. فالإحالة الضّميرية تؤدّي هنا وظيفة «النيابة عن الكلمات والعبارات»، بما يمنح الخطاب مرونة وجمالية، ويخلصه من رتابة التكرار المباشر.

فبدلًا من إعادة اسم المعتصم في كل بيت، يكتفي الشّاعر بضمير الغائب المفرد (هـ) في تراكيب متعددة مثل: حُبِّهِ، فَضْلِهِ، جُودِهِ، وهي إحالات قبليّة تحافظ على مركزيّة الممدوح بوصفه المرجع الأعلى للنص. وقد أشار إسماعيل إلى أن «الضّمير هو العنصر الأكثر استعمالًا في الإحالة لما له من دور مهم في ربط أجزاء النص» (إسماعيل، 2011، ص 100). ويؤدّي هذا التكرار الضّميري وظيفة مزدوجة:

اقتصادية، من حيث تقليل التكرار اللفظي؛

وجمالية، من حيث إشراك المتلقّي في استحضار المرجع ذهنيًا.

أما ضمير الغائب الجمع (هم) ، فيرد غالبًا في سطور الحديث المخصص عن أتباع الممدوح أو أعدائه، كما في مقاطع وصف المعركة، حيث يُستخدم لرسم شبكة علاقات تقابلية داخل النص. فالإحالة إلى الجماعة بصيغة الجمع تقف في مقابل إحالة المفرد (الممدوح)، مما يعزز دلالة الهيمنة والتفوق؛ إذ يظهر الممدوح فردًا متفردًا في مقابل جماعة متفرقة. ويُسهم هذا التباين الإحالي في «رسم العلاقات المعنوية القائمة داخل النص» (إسماعيل، 2011، ص 106)، ويمنح الخطاب المدحي بعدًا تداوليًا يتجاوز مرحلة الوصف إلى طور الإقناع.

وعليه، فإن استخدام ابن الحداد لهذه «المضمرات التي تحتاج إلى مرجع يوضحها» لا يندرج في إطار الضرورة النّحوية فحسب، بل يكشف عن وعي خطابي يجعل من مقام المدح فضاءً تداوليًا تُبنى فيه المعاني عبر شبكة إحالية متداخلة، تعكس رؤية الشّاعر لممدوحه بوصفه مركز النظام الدلالي للقصيدة بأكملها.

2- الإحالة المقامية (Exophoric Reference) والبعد الخطابي

تُعدّ الإحالة المقامية في همزية ابن الحداد الأندلسي أحد المفاتيح الأساس لفهم البعد الخطابي للنص، إذ لا يُستدل على مرجعها من داخل البنية اللغوية وحدها، بل من خلال العودة إلى سياق الإنتاج التاريخي والسياسي للقصيدة. فالضّمير في هذا النوع لا يربط عنصرًا لغويًا بآخر في الحدود الداخلية للنص، وإنما يربط الملفوظ بمقتضى الحال، وهو ما يجعل الخطاب – كما يشير خنياب ومدلول – «حيًّا ومتّصلاً ببيئته» (خنياب & مدلول، 2020، ص 1). ومن ثمّ، تتحول الإحالة المقامية إلى أداة تداولية تكشف عن موقعية الشّاعر، وماهية العلاقة بينه وبين الممدوح، وحدود الصراع مع الآخر.

أ. ضمائر المتكلّم والمخاطب: أثر التّواصل بين الشّاعر والمتلقّي.

– ضمائر المتكلّم: بناء ذات الشّاعر بوصفها شاهدة.

يحضر ضمير المتكلم في الهمزيّة بوصفه علامة إحالية مقامية تحيل على ذات الشّاعر خارج النص، لا بوصفه راوياً محايدًا، بل شاهدًا مشاركًا في الحدث ، له وظائف وأدوار مركزية وثانوية ، تتباين تأثيراتها حسب السياق الآني في كل مورد من موارد الإحالة ، ويتصاعد ذلك إلى سطح الخطاب في قوله:

فأعجَبْ لهمْ وَتَرُوا نَفْسِي وما شَعَرُوا ولا دَرَوْا مَنْ بِعَيْنَيْ رِيمِهِمْ وجَأُوا

فالضّمير «نفسي» يحيل إحالة مقامية مباشرة على ذات الشّاعر، ويؤكد حضوره داخل المشهد الحربي، لا كمجرّد مادح، بل كمشارك وجداني يرى، ويُخدع الأعداء عن إدراكه. ويُسهم هذا الحضور في تعزيز ما يسمّيه مراشدة «حضور الذّات المحورية في إنتاج الخطاب» (مراشدة، 2025، ص 9)، إذ يصبح الشّاعر جزءًا من الحدث الذي يصفه، لا مجرّد ناقل له.

وتكمن القيمة الخطابيّة لهذا التوظيف في أنه يعزز «صدقية التجربة الشعرية لدى المتلقّي» (إبراهيم، 2024، ص 430)، كون المتلقّي يتعامل مع خطاب صادر عن ذات عاينت الوقائع، لا عن صوت مفارق أو متعالٍ. وهكذا تتحول الإحالة المقامية بضمير المتكلم إلى آلية إقناع غير مباشرة، تُضفي على المدح طابع الشهادة.

– ضمائر المخاطب: تحويل المدح إلى مواجهة خطابية

إلى جانب ضمير المتكلم، يبرز ضمير المخاطب في الهمزيّة بوصفه أداة إحالية مقامية تُخرج النص من دائرة الوصف إلى فضاء الخطاب المباشر. ويتجلى ذلك في مقاطع توجيه الثناء إلى الممدوح، حيث يصبح المخاطب حاضرًا ذهنيًا في وعي القارئ، كما في قوله:

لَكَ المَكارمُ ما هبّتْ صَبا نَجْدٍ وما تهادَى على الآفاقِ نَسْنَسُ

فالضّمير «لك» لا يحيل على عنصر لغوي متجذر في دواخل النص، بل على الممدوح بوصفه شخصًا حقيقيًا خارج الخطاب ، وهو ما يحول المدح إلى ما يشبه «المواجهة الخطابيّة المباشرة». وقد أشار حسوني وهاشم إلى أن هذا النمط الإحالي «يستدعي حضورًا ذهنيًا للمخاطب في وعي القارئ» (حسوني & هاشم، 2021، ص 1)، فيغدو الثناء أشبه بتكريم علني يُنجَز أمام جمهور مفترض.

ويُلاحظ أن هذا الخطاب المباشر يرفع من شأنية الممدوح ، بلحاظ أنه لا يُذكر بوصفه موضوعًا خارجيا للحديث فحسب ، إنَّما لكونه طرفًا فاعلا في عملية التخاطب، وهو ما يمنح المدح قوة تداولية تتجاوز تخوم الوصف البلاغي.

ج. الإحالة على الأعداء: دلالات التعيير والتهديد في ضمائر الغيبة الجمعية

يلتجأ ابن الحداد في بناء لوحة وصف المعارك إلى توظيف ضمائر الغيبة الجمعية (هم) بوصفها إحالة مقامية ذات وظيفة عدائية صادمة ، تحيل على الأعداء خارج النص من دون تسميتهم. وينبثق ذلك في قوله:

إذا تجلّى إلى أبصارِهِمْ صَعِقُوا وإن تغلغلَ في أفكارِهِمْ هَمَوُوا

فالضّمير «هم» في «أبصارهم» و«أفكارهم» لا يحتاج إلى مرجع لغوي سابق، بل يُفهم مقامياً بوصفه إحالة على العدو المعروف في سياق الصراع. ويُعين هذا الأسلوب في «رسم مسافة دلالية بين الأنا (المادح وممدوحه) والآخر (العدو)» (صابر & علي، 2021، ص 515)، حيث يُقصى العدو إلى هامش الخطاب، ويُختزل في ضمير بلا اسم.

وتكشف هذه الاستراتيجية الإحالية عن قصد تداولي راكز، يتجسد في التعيير والتحقير؛ إذ إن «التغييب المتعمد لأسماء الأعداء الصريحة» والاكتفاء بالضّمير يجعلهم – كما يرى أحمد – «ذواتًا هامشية لا تستحق التسمية» (أحمد، 2023، ص 1). فالضّمير هنا لا يربط فحسب، بل يُقوّم ويُدين.

كما تؤدّي الإحالة المقامية وظيفة تهديد غير مباشر، حين تُستخدم الضّمائر في سياق بيان مآلات الهزيمة، وربطها بفعل الممدوح، كما في قوله:

تدكُّ هامَتَهُمُ والفتحُ يتبعُها حتى تضلَّ عن الآراءِ أفهامُهُم

فالضّمائر هنا تُحاصر العدو داخل فضاء الغياب، بينما يُسلّط عليه فعل القوة الصادر عن الممدوح، وهو ما يجعل الإحالة – بحسب عبد النبي – وسيلة لـ«تأطير فعل الممدوح في مواجهة ضلال الأعداء» (عبد النبي، 2025, ص 577). وبذلك تتحول الإحالة إلى "أداة خطابية لإظهار التفوق والتمكين» (المصيفي، 2016، ص 2).

3- تحولات الضّمير (Shift of Reference) والالتفات

تُعدّ ظاهرة تحوّل الضّمير من أبرز الآليات الخطابيّة التي يوظفها ابن الحداد الأندلسي في همزيته، إذ لا يلتزم بنمط إحالي واحد، بل ينتقل بين ضمائر الغيبة والخطاب والتكلم وفق مقتضيات السياق الدلالي والمقصد التداولي. ولا يُعدّ هذا التحول مجرد تنويع أسلوبي، بل هو شكل من أشكال الالتفات الإحالي الذي يعيد توجيه

انتباه المتلقّي، ويُحدث انتقالًا في زاوية النظر إلى المرجع الواحد، بما يثري المعنى ويمنح الخطاب حيوية وديناميّة.

أ- الانتقال من الغيبة إلى الخطاب: من الوصف إلى المواجهة

يلاحظ في همزية ابن الحداد أن الشّاعر يبدأ غالبًا بوصف الممدوح بضمير الغائب، في سياق تقريري يُعنى بسرد الصفات والأفعال، ثم لا يلبث أن ينتقل إلى مخاطبته مباشرة بضمير الخطاب. ويتجلى هذا التحول بوضوح في الانتقال من مثل قوله:

ملكٌ إذا نُسبتْ أخلاقُهُ عُرِفَتْ في الحِلمِ والبأسِ والإقدامِ والشممِ

إلى قوله في موضع لاحق:

لَكَ المَكارمُ ما هبّتْ صَبا نَجْدٍ وما تهادَى على الآفاقِ نَسْنَسُ

فالمرجع واحد (الممدوح)، غير أن زاوية الإحالة تغيّرت: من الغيبة التي تُقدّم الممدوح بوصفه موضوعًا للوصف، إلى الخطاب الذي يجعله طرفًا حاضرًا في عملية التخاطب. ويحمل هذا التحول دلالة خطابية واضحة، إذ ينتقل النص من نبرة تقريرية تسرد الأمجاد، إلى نبرة وجدانية مباشرة تعبّر عن القرب والتعظيم. ويُسهم هذا الانتقال – كما تشير الدراسات التداولية – في "تجسيد حضور الممدوح في ذهن المتلقّي، مما يجعل الثناء يبدو وكأنه تكريم علني معاصر للحدث» (حسوني و هاشم، 2021، ص 1).

ولا يقتصر أثر هذا التحول على الممدوح وحده، بل يطال المتلقّي أيضًا، إذ يعمل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب على كسر رتابة النسق الوصفي، و«جذب انتباه السامع وتجديد نشاطه الذهني لمتابعة التدفق الدلالي للنص» (إبراهيم، 2024، ص 430). فالخطاب المباشر يُشعر القارئ بأنه يشهد لحظة تواصل حي، لا مجرد سرد شعري مؤجل.

ب- دلالة التّحولات الإحاليّة ومقصد الشّاعر

لا تأتي تحولات الضّمير في همزية ابن الحداد اعتباطًا، بل ترتبط بمقاصد تداولية تخدم غرض المدح في أعلى درجاته. فعندما يبلغ الخطاب ذروة التعظيم، يتحول الشّاعر إلى ضمير المخاطب، وكأنه يوجّه الصفات الجليلة مباشرة إلى ذات الممدوح، لا عبر وسيط لغوي. ويهدف هذا التحول إلى التخصيص والحصر، أي تعيين الصفات في شخص الممدوح وحده، وتأكيد أنه المخاطَب المقصود دون سواه. وقد أشار إسماعيل إلى أن مثل هذه التحولات الإحالية تعمل على «تعزيز مركزيّة المرجع وتكثيف حضوره الدلالي» (إسماعيل، 2011، ص 101).

كما تكشف هذه التحولات عن بعد نفسي في الخطاب، إذ ينتقل الشّاعر بين مواقع مختلفة:

أنا الشّاهد والمادح؛

أنت الممدوح المخاطَب في لحظة التّكريم؛

هو البطل الغائب في ساحة المعركة.

ويتجلى هذا التدرّج في مقاطع تجمع بين الخطاب والوصف، نحو قوله:

تُغْني أياديه ما تُغْني صوارِمُهُ وللْغِناءِ هو الإقلالُ والفَنَأُ

ثم العودة إلى الخطاب في موضع آخر، مما يعكس قدرة الشّاعر على تغيير زاوية الرؤية بحسب مقتضى الحال. ويُكسب هذا التنقل النص بعدًا دراميًا، يخرجه من إطار القصيدة التقليدية الساكنة إلى فضاء تفاعلي تتداخل فيه الأصوات والوجهات.

وعلى الرغم من هذا التبدل الظاهري في الضّمائر، فإن النص لا يفقد تماسكه، لأن وحدة المرجع تظل محفوظة. فالتحولات الإحالية لا تقطع السلسلة الدلالية، بل تُعيد ترتيبها، وتعمل بوصفها «شبكة من العلائق التي تربط بين المقاطع الوصفية والمقاطع الخطابيّة داخل القصيدة» (أحمد، 2023، ص 1). وبذلك يتحقّق التماسك النصي في مستوى أعمق، يقوم على وحدة المرجع لا على ثبات الصيغة الضّميرية.

إن هذه «المناورات الإحاليّة» في همزيّة ابن الحداد تجعل من الضّمير عنصرًا فاعلًا في توجيه نبرة الخطاب، والتّحكم في المسافة النفسيّة والجماليّة بين الشّاعر والممدوح من جهة، وبين الشّاعر والمتلقّي من جهة أخرى. ومن ثمّ، يغدو الالتفات الضّميري أداة تداوليّة واعية، لا مجرد حيلة بلاغيّة، تُسهم في بناء خطاب مدحيّ متماسك، حيّ، ومؤثّر.

الخاتمة :

أظهرت الآليات التحليلية والتطبيقية للدراسة تجاوز النّظرة التّقليديّة للضّمير كأداة "نيابة" أو "اختصار"، لتبين حضوره المحوري في بناء النّص الشّعري وضمان تماسكه النحوي وديمومته الدّلالية من خلال تتبّع المسارات الإعرابيّة والدّلالية للضّمائر، وقد أوجزنا الخلاصة بجملة من النّتائج :

- **الضّمير كآلية استراتيجيّة:** لم يكن الضّمير مجرد تابع نحوي، بل أداة أدار بها الشّاعر حركة المعنى، حيث حافظت "الإحالة القبلية" على استمرارية المرجع للممدوح، مما منح القصيدة وحدة متماسكة رغم طولها وتعدّد أغراضها.
- **الدّور الإعرابي للضّمير:** الموقع الإعرابي للضّمير (رفع، نصب، جر) كان موجهاً للقراءة؛ فـ"**ضمائر الرّفع**" مثل **واو الجماعة** رسمت صورة الصّراع الجماعي، بينما "**ضمائر الفصل**" مثل **هو** ركّزت على الممدوح وأبرزت مركزيته الدّلالية.
- **الإحالة المقاميّة:** والعاملة على ربط النّص بالواقع التّاريخي والسّياسي، إذ أسهمت ضمائر المتكلّم والمخاطب في تحويل المدح إلى خطاب حي، ما أضفى صدقيّة على التّجربة الشّعريّة.
- **الالتفات والتّحول الضّميري:** لم يكن مجرّد تنويع أسلوبي، بل "مناورة إحاليّة" واعية لكسر رتابة النّسق وتجديد ذهن المتلقّي، مع الحفاظ على وحدة المرجع ومنع تشتّت النّص.

تبيّن أنّ الإحالة الضّميرية كانت العامل الحاسم في تحقيق الانسجام في الهمزيّة؛ إذ لم تكن الضّمائر أدوات تركيبية فحسب، بل أضفت تماسكًا للنّص وربطت أجزائه وأدارت حركة المعنى. وبذلك يمكن الإجابة عن إشكالية الدراسة بإن الاتّساق والانسجام في النص تحقّقا بفضل هذه الآليات الإحالية التي جعلت الضّمائر ملمحا أساسيًا في تنظيم النص وإلجهر بدلالاته.

وبذلك توصي الدّراسة بتعميم المنهج النّحوي–الدّلالي على النّصوص الشّعرية الأخرى لاستكشاف آليات بناء المعنى بنحو اتساعي ، ودراسة وسائل الإحالة الأخرى في الشّعر الأندلسي وتواشج وظائفها مع مقصديات التّماسك الدّلالي، بالإضافة إلى إجراء مقارنات نصّية بين شعراء أندلسيين للكشف عن أنماط الإحالة الضّميرية واستراتيجياتها المختلفة، لإثراء الفهم العلمي للتّراث الشّعري الأندلسي.

المصادر والمراجع

1. أحمد، حيدر هادي. (2023). عناصر الإحالة في ميمية الفرزدق - مقاربة بلاغية. مجلة المستنصرية للعلوم الإنسانية.
2. إبراهيم، محمد محمود. (2024). أثر الإحالة في التماسك النصي في شعر عبد الستار سليم. مجلة كلية الآداب بقنا.
3. إسماعيل، هناء. (د.ت). الضمير ودوره في التشكيل الإحالي. مجلة الدراسات اللغوية والأدبية.
4. إسماعيل، نائل محمد. (2011). الإحالة بالضمائر ودورها في تحقيق الترابط في النص القرآني. مجلة جامعة الأزهر بغزة - سلسلة العلوم الإنسانية.
5. الخنياب، لمى عبد القادر، ومدلول، عدنان حسين. (2020). الإحالة في شعر حامد الراوي (دراسة في ضوء علم لغة النص). مجلة جامعة القادسية.
6. الداودي، زاهر بن مرهون. (2021). الإحالة بالضمائر في سورة الحاقة دراسة إحصائية نصية. مجلة الدراسات اللغوية.
7. المصيفي، أمير رفيق عولا. (2016). الإحالة بالضمائر في سورة الإنسان ودورها في الانسجام النصي. جامعة سوران.
8. محجوبي، عبد العالي. (2021). الإحالة الضميرية وأثرها في تأويل الخطاب القرآني. المجلة الدولية للنشر العلمي.
9. مراشدة، فاتن. (2025). الإحالة الضميرية وأثرها في تماسك النص وانسجامه في شعر نازك الملائكة. مجلة جرش للبحوث والدراسات.
10. صابر، سامان صلاح، وعلي، آاسو أحمد. (2021). الإحالة بالضمير وأثرها في تحقيق التماسك النصي. مجلة جامعة سليماني.
11. شتيوي، فاطمة أحمد. (2025). الإحالة في ضوء علم اللغة النصي (ديوان النابغة الذبياني نموذجاً). حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة.
12. عبد النبي، حسن هادي. (2025). الإحالة اللغوية: دراسة نصية في آيات قرآنية مختارة. مجلة القادسية للعلوم الإنسانية.
13. هاشم، حسين عودة، وحسوني، حازم رشك. (2021). الإحالة الضميرية في شعر مصطفى جمال الدين. المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية.